الآثار الاجتماعية للاكتظاظ السكاني والحضري

دراسة نظرية في علم الاجتماع الحضري

م. نادية صباح محمود الكبابجي*

تاريخ التقديم: 2009/8/7 تاريخ القبول: 2009/8/17

المقدمة

بدأ الاهتمام بالدراسات الحضرية في القرن السادس عشر حين نشر جوفاني بوترو مؤلفه الشهير عظمة المدن عام 1598، وفي سنة 1899 كتبت أدنا فيبر بحثاً سوسيولوجياً أكثر تخصصاً بعنوان المدن في القرن التاسع عشر، وبعد مرور عشرين عاماً نشر ماكس فيبر كتاب المدينة[1].

وبدأ الاهتمام بها (الدراسات الحضرية) بعد ذلك بشكل منهجي وأكاديمي إلا أن هذا الاهتمام غالباً ما توجه نحو دراسة السلوك، خاصة بعدما أفرزته المدينة الصناعية من أنماط سلوكية جديدة في المجتمع. وفي وقت لم تكن فيه الخدمات محط اهتمام كان من الطبيعي أن تكون هذه الدراسات بعيدة عن المجتمع بقدر ما هي قريبة من التاريخية والمثالية ولعل مثالية المدرسة الألمانية في تصور المدينة استشهاد طيب بذلك.

لكن بعدما أخذ المجتمع يتحول في الاهتمام بما يمكن أن نسميه بالخدمات وبعدما تفاقمت المشاكل الاجتماعية تغير الاهتمام بموضوع المدينة فسار البحث من اهتمام بالمدينة إلى اهتمام بمشاكل المدينة وهي عديدة وكثيرة. ولعل أولى تلك

* قسم الاجتماع/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

(1) غريب محمد سيد احمد، علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2006 ص19.

الاهتمامات كان الاهتمام بالنمو السكاني والنمو الحضري والهجرة وقد بدات تلك المشاكل تترك آثاراً من الصعب تجاهلها.

في ظل هذه الظروف تبلور علم الاجتماع الحضري حين بدأ يهتم بالموضوعات التي تحدث داخل المدينة وقد سميت تلك الموضوعات بالدراسات الحضرية.

في هذا الاتجاه يصب موضوع بحثنا المعنون الآثار الاجتماعية للاكتظاظ السكاني والحضري. ليدرس موضوعين أساسيين في علم الاجتماع الحضري ألا وهما (المدينة) وأحد (مشاكلها– الاكتظاظ السكاني والحضري).

وقد انقسم البحث في درسه الحضري إلى مقدمة وثلاثة فصول ثم نتائج البحث واتبع بتوصيات جاءت من رحم موضوع البحث.

ناقش الفصل الأول الإطار المنهجي للبحث، أما الفصل الثاني فقد تناول المدينة وخصائصها، في حين كان عنوان الفصل الثالث الأكتظاظين السكاني والحضري وقد تناول مفهوم الاكتظاظ ثم أسبابه ومشاكله وآثاره . وختم البحث بعد عرض النتائج والتوصيات قائمة المصادر.

الفصل الأول

المبحث الأول

الإطار المنهجي للبحث

مشكلة البحث

شكل المكان المجال الحيوي لحركة الإنسان وبتزايد إعداده اخذ المكان أبعادا جديدة وأصبحت له مفاهيمه الأساسية التي ميزته باختلاف مراحل تطور البشرية فبعد أن كان (المكان) الذي يعيش فيه ويبني خيمته أو كوخه فوقه أصبح ذو قيمة لديه. وما القرية والمدينة في الوقت الحاضر إلا ذلك المكان الذي له مفاهيمه التي ميزته عن غيره من الأمكنة، ومن هذه المفاهيم التي لها أبعاد ملموسة على صعيد الواقع؛ الاكتظاظ السكاني والاكتظاظ الحضري ونظراً للتلازم الحاصل بينهما فقد استدعى الأمر حين الدرس أو البحث أن يستحضر المكان كمدينة، والاكتظاظ السكاني والاكتظاظ الحضري كمفهومين مميزين لها (المدينة). وقد اقتضت الضرورة المنهجية أن تكون مشكلة البحث دراسة الآثار الاجتماعية للاكتظاظ السكاني والاكتظاظ الحضري مشكلة للبحث.

أهمية البحث

يمكن ملاحظة أهمية البحث بما يأتي:

1. انه يمثل اسهامة بسيطة في مجال علم الاجتماع الحضري
2. بيان الفروق ما بين العالم المتقدم والعالم الثالث حول ظاهرة الاكتظاظ.
3. لفت الأنظار إلى أهمية هذا الموضوع في ضوء انشغال سياسيينا ومفكرينا بغيره من القضايا.

أهداف البحث

1. التعرف على المدينة وخصائصها.
2. التعرف على مفهوم الاكتظاظ السكاني والاكتظاظ الحضري.
3. التعرف على أسباب ومشاكل الاكتظاظ السكاني والاكتظاظ الحضري.
4. إبراز وجه التفاعل ما بين المدينة والاكتظاظ السكاني والاكتظاظ الحضري.

5. بيان درجة الاكتظاظ السكاني والاكتظاظ الحضري في العالم العربي .
6. بيان الفروق بين درجات الاكتظاظ السكاني والاكتظاظ الحضري ما بين العالم المتقدم وعالمنا النامي.

منهج البحث: تم اعتماد أكثر من منهج وعلى النحو التالي:-

1. المنهج المقارن لغرض التعرف على الاكتظاظ السكاني والاكتظاظ الحضري في العالمين المتقدم والنامي والتعرف على مستوى الفروق في المشاكل التي يخلفها في هذين العالمين.
2. منهج التحليل الاجتماعي الذي يسعى إلى التفسير السببي، لاعتقاد الباحثة أن للاكتظاظ أسبابه التي أوجدت نتائجه سبباً.
3. المنهج التاريخي على صعيد الظاهرة الواحدة على مر العصور، أو صعيد الظاهرة الواحدة ضمن الزمن الواحد وبأسلوب مقارن.

طبيعة البحث:

يعد هذا البحث من البحوث النظرية – الوصفية لعرض مضمون الاكتظاظ السكاني والاكتظاظ الحضري والتعرف على نتائجهما على المجتمع والمدينة .

المبحث الثاني
مفاهيم البحث

1- الاكتظاظ :

يتصل مفهوم الاكتظاظ بالعلاقة بين السكان والموارد [2] وبالمعنى الخاص الازدحام السكاني الذي يتركز في منطقة جغرافية معينة غالباً ما تكون المدينة بسبب استمرار الزيادة الطبيعية والهجرة المستمرة حتى يصبح النمط الإنتاجي قادراً على استيعاب هذه الزيادة السكانية بصورتها التراكمية الأمر الذي أدى إلى وجود ما يسمى بالفائض السكاني والذي أصبح فيما بعد يمثل مشكلة ذات أبعاد عميقة، [3] وانتهت الباحثة إلى تعريف إجرائي مفاده أن الاكتظاظ هو الخلل الذي يحدث

(2) احمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان/ بيروت 1982 ، ص301.

(3) سعد جمعة، المدخل إلى علم الاجتماع الحضري، جامعة القاهرة، 2005، ص257.

بسبب عدم التوازن بين درجة استغلال الموارد من جهة وبين درجة تزايد السكان من جهة ثانية.

2 – الاكتظاظ السكاني

يتمثل الاكتظاظ بإبعاد عديدة أهمها الإبعاد السكانية حين تتزايد المشكلة السكانية ممثلة بالنمو السكاني إلى الحدود التي تتجاوز قدرة الموارد على إشباع الحاجات السكانية مما يخلق اكتظاظاً في مناطق معينة من المدينة خاصة الفقيرة ومن ثم يؤدي إلى إيجاد كثير من المشكلات السكانية ففي بعض المدن العربية لم يستطع النمو العمراني أن يواكب أو يلاحق النمو السكاني بمعنى أن المدينة تنمو وتمتد عمرانياً بمعدل أقل من النمو السكاني مما أسفر عن تركيز سكاني على مساحات عمرانية محددة، فادى ذلك إلى ارتفاع في الكثافة السكانية [4] وهذا المفهوم هو ما اعتمدته الباحثة بخصوص الاكتظاظ السكاني كمفهوم إجرائي.

3 – الاكتظاظ الحضري:

هو المكان الحضري الذي يرتبط بالأساس الوظيفي للمدينة الحديثة مما انعكس بوضوح على بنائها الايكولوجي وجعلها تكشف عن خصائص مختلفة إلى حد كبير عن خصائص مدينة العصور القديمة [5]. بما ترتب على ايكولوجيا المدينة من تغيرات بنائية عديدة أهمها الازدحام المكاني حيث تتلاصق المباني ويزدحم العمل في المكان الواحد مما يخلق اكتظاظاً لا نجده في غير المدينة .

أما التعريف الإجرائي له فهو عجز العمران الحضري عن الإيفاء بحاجات السكان الذي يعيشون في المدينة مما يخلق ما يسمى اكتظاظاً فيما موجود من عمران حضري من قبل السكان.

المدينة

(4) حيدر عبد الرزاق كمونة، سياسات التحضر في الوطن العربي ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990، ص84.

(5) السيد عبد العاطي السيد، علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، 1996، ص127

تجمع سكاني وعمراني دائم كبير يمتاز بالأسلوب الحضري للحياة. وحقيقة هناك تعريفات كثيرة للمدينة وفقاً لعدد السكان أو نوع المهنة الغالبة أو الأساس الاقتصادي للوحدة السكنية أو المستوى الإداري أو المظهر العمراني ويرى سوروكن أن هناك أسساً عديدة تميز المدينة وهي الحرفة، البيئة، الحجم، الكثافة، تجانس أو تنافر السكان، التباين والطبقية الاجتماعية، الحركة الاجتماعية، نظام التفاعل[6]، وقد اعتمدت الباحثة تعريف سوروكن تعريفاً إجرائيا في البحث.

الفصل الثاني

المدينة وخصائصها

المبحث الأول: المدينة

يصعب تحديد جذور مفهوم المدينة، فهي عند فوستيل دي كولانج قد أخذت شكلها من تدرج توسع الديانة من إطارها المنزلي إلى إطارها الديني [7] وعند المحدثين جاءت عن انتشار الرأسمالية الصناعية [8] إلا انه رغم ذلك لا يختلف القدماء عن المحدثين من كونها تمارس سلطةً ودوراً وظيفياً تحدد فيها النشاط الاجتماعي.

وباختلاف مفهوم المدينة رغم الانتهاء إلى كونها تعكس نمطاً يعكس الفكر الاجتماعي ما بين القديم والحديث إلا أن التصور تجاهها تباين فهي القدامى تملك المواطن كاملا [9] إلا أنها عند المحدثين نتاج المواطن وثقافته لا المواطن نتاجها لأنها عند المحدثين تمثل التجليات الرمزية للتفاعل بين فئات عريضة من القوى الاجتماعية، فناطحات السحاب على سبيل المثال تتنامى لأنها ترتبط بتزايد الربح، غير أن هذه المباني المتطاولة ترمز إلى سطوة المال وهيمنته على

(6) د. احمد زكي بدوي، مصدر سابق، ص60.

(7) نادية صباح محمود، الفكر الاجتماعي لفوستيل دي كولانج، دراسة تحليلية للمدينة العتقية، مجلة آداب الرافدين – تصدر عن كلية الآداب جامعة الموصل ع42 س2005، ص29.

(8) انتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة وتقديم. د. فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط4، ط1 2005 ص600.

(9) نادية صباح محمود، الفكر الاجتماعي لفوستيل دي كولانج، مصدر سابق، ص29.

المدينة... بحيث تغدو في آخر الأمر أشبه بالكاتدرائيات الممثلة لتصاعد النظام الاقتصادي الرأسمالي[10].

ووفق جوردن اركسن في مؤلفه السلوك الحضري فان الاختلاف في مفهوم المدينة يعد امراً مقبولاً إذا ما أخذنا في الاعتبار اختلاف تخصصات الدارسين[11] كل من زاوية يجدها الأنسب لفهم وتفسير المدينة.

في هذا الاتجاه وجد الاجتماعيون أنفسهم أمام قضية الفعل الاجتماعي (السلوك الاجتماعي) ليكون مؤشراً فاعلاً لفهم وتفسير المدينة ومن هنا نجد أن (ويرث) قد حدد خصائص الفعل الاجتماعي في المدينة بثلاث نقاط تمثلت بالحجم والكثافة واللاتجانس وفيما بعد أضاف إليها بيترم سوركن وكارل زيمرمان خصائص أخرى تسهم في عملية الفهم الاجتماعي للمدينة والحياة الحضرية حدودها بثمان خصائص هي المهنة، والبيئة الطبيعية، وحجم المجتمع، وكثافة السكان، التجانس واللاتجانس، التدرج الاجتماعي والحراك الاجتماعي ونسق التفاعل[12].

إن النظرة السوسيولوجية لمفهوم المدينة غالباً ما ارتبطت بمفهوم الكثافة السكانية التي غدت أحد مؤشرات التحضر تحت عنوان التضخم الحضري الذي يعرف عادة على انه "الموقف الذي تعيش نسب من سكان بلد ما تفوق إمكانيات النمو الاقتصادي لتلك الأماكن"[13] وبالقاءنا نظرة بسيطة على تطور المدينة منذ بدايات الثورة الصناعية وحتى مرحلة ما بعد الصناعة فإننا نجد أن الأمر كان متعلقاً بما يأتي:

الأول : عامل الكثافة السكانية التي ارتبطت بمؤشرين هما الهجرة من الريف إلى المدينة أثر تزايد ضغط الإقطاعيين من جهة ووفرة العمل في المدينة مطلع الثورة

---

(10) انتوني غدنز، مصدر سابق، ص601.

(11) سعد جمعة، المدخل إلى علم الاجتماع الحضري، جامعة القاهرة 2005، ص173.

(12) المصدر نفسه، ص 176 – 176

(13) جيرالد بريز مجتمع المدينة في البلاد النامية، ترجمة: محمد الجوهري، دار المعرفة الجامعية 1989، ص246.

الصناعية من جهة اخرى.اما المؤشر الثاني فهو تحسن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والصحية مما جعل المدينة جاذبة بكل المقاييس.

الثاني: عامل الاقتصاد والصناعة الذي بلور مفهوم المجتمع الصناعي حيث قوامه المال ومقداره في الاستثمار.

الثالث: مقدار الخدمات التي توفرها المدينة مع كافة أنواعها [14]، ومما يلاحظ انه ترتب على عامل الكثافة العاملان الآخران بل وجميع العوامل الأخرى التي من شأنها أن تعطي المدينة سماتها إلى الحد الذي جعل من علماء الاجتماع يقولبون بعض المفاهيم السكانية بقوالب اجتماعية تعطيها أبعادها المعنوية كمفاهيم اجتماعية، مثل مفهوم الكثافة السكانية، الذي حاول دوركهايم أن يتميز باستخدامه من خلال طرحه لمفهوم الكثافة الاجتماعية وبالنتيجة أضاف إليه أبعاداً جديدة فإذا كانت الكثافة السكانية هي عدد الأشخاص في وحدة من منطقة معينة فان الكثافة الاجتماعية هي تلك التي تنمو عن النمو السكاني ذاته، والتطور في وسائل أنظمة الاتصال كالاتصالات والمواصلات، هذا التفاعل الحاد أو الكثافة الاجتماعية المتزايدة تصحبها منافسة متزايدة على جميع المكانات الاجتماعية [15].

وكل ذلك لما كان لواقع الكثافة السكانية من آثار انعكست على السلوك الاجتماعي (حسب دوركهايم) حيث انه نتج عنها (الكثافة السكانية) آثار أدت إلى تغير في القيم الأخلاقية[16] التي أصبحت ذات طابع مميز في المدينة إلى جانب صوراً اجتماعية لا نجد لها مثيلاً في غير المناطق الصناعية (المدن الكبرى) حتى أصبحت تلك القيم الحضرية نمطاً مميزاً دعاها لويس ديرث، بطريقة الحياة وحددها بميزات [17]

---

(14) http://swmsa.net/form/archive/index-php/r-10193.html9/14/2005.

(15) مصلح الصالح، النظريات الاجتماعية المعاصرة، مؤسسة الوراق، عمان – الأردن، ط1، 2000، ص263.

(16) عزيزة عبد الله النعيم، الفقر الحضري وارتباطه بالهجرة الداخلية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009، ص67

(17) ينظر: غريب محمد سيد احمد والسيد عبد العاطي السيد، علم الاجتماع الريفي والحضري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988، ص394 –410.

وإذا كانت المدينة صُورت لنا على أنها المكان الذي تضعف فيها العلاقات الاجتماعية وتسود فيه قيم الفردية بل وبالغ لويس ويرث وتلاميذه بالقول إلى أن الحضرية كأسلوب في الحياة تتميز بالعلمانية وظهور الجماعات الثانوية والميل نحو تفتت الأدوار وعدم وضوح المعايير (18) إلا أن ذلك لم يكن هو التصور النهائي عن طابع الحياة في المدينة حينما أوضحت بعض الدراسات الواقعية عكس ذلك كدراسة اوسكار لويس عن التحضر في المكسيك إذ لم يجد انه بالضرورة انهيار النظام الاجتماعي والأخلاقي في حال وجود التحضر (19).

فيما سلف نستطيع الخلوص إلى أن هناك تصوراً عن المدينة قديماً ارتبط بمفهوم الدين وآخر حديثاً ارتبط بمفهوم الاقتصاد والرأسمالية، وانه صاحب المدينة على الدوام تصورات متعددة تعلقت بتباين وجهات نظر الباحثين، وكان التصور الاجتماعي للمدينة مرتبطاً بمفهوم القيم الاجتماعية وقد كانت وجهات النظر تجاهها ما بين رؤية تذهب إلى تخلخل القيم الاجتماعية وأخرى لا تجد ذلك ضرورياً كما عمل علماء الاجتماع على تكيف المصطلحات التي اعتمدتها التخصصات الأخرى بما يتفق ونهج علم الاجتماع بعد إضفاء الملامح الاجتماعية عليها كمصطلح الكثافة الاجتماعية.

المبحث الثاني :خصائص المدينة

المدينة مفهوم اكبر من أن يكون مساحة مكتظة بالسكان،والخدمات المدينية مفهوماً ذو عمق لعله سياسي إذا ما تتبعنا عمقها التاريخي "وقد أدت دور العاصمة بالنسبة إلى مجموعات القرى التي كانت ترتبط ارتباطاً عضوياً" (20) لتشكيل الدولة قديماً، وهذا المعنى التاريخي في واقع الحال يحمل معنى حضرياً إذا ما قارناه بتعريف مفهوم التحضر بالنسبة للمدينة حسب تعريف التعداد السكاني للولايات المتحدة عام 1910وكانت الجماعة الحضرية منفصلة بصورة

(18) غريب محمد سيد احمد، علم الاجتماع الحضري، مصدر سابق، ص45.
(19) المصدر نفسه، ص48.
(20) مجموعة من المؤلفين، المجتمع الحديث في أبعاده الأساسية، ج 1 ، ترجمة: وجيه اسعد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1982، ص270..

واضحة عن الجماعات الأكثر تفرقاً في المزارع والقرى... كان المفهوم يفترض ان الحدود السياسية للمدينة تظم بالفعل جميع من يعيشون في ظل ظروف حضرية حقاً"[21] اما القرى المحيطة بالمدينة القديمة والضواحي المحيطة بالمدينة الحديثة فهي تجمعات ابسط ما نقول عنها أنها تميز المدينة كمنطقة حضرية من كونها تقع خارج حدودها ولها وظائف هي أكثر لصوقاً بالمفهوم الريفي من ناحية وكونها أقلَ حجماً من ناحية السكان وأوفر مساحة من حيث الأرض، وأقل توفراً للخدمات ولعل عكس هذه المتغيرات يعطينا مؤشرات مادية على خصائص المدينة،

أما خصائصها الاجتماعية(المدينة)فلا شك هي الأخرى تمنحها صفتها المدينية.

ان الأنسب للتعريف بخصائص المدينة أن نقسمها إلى قسمين:-

خصائص اجتماعية، وأخرى مادية. على أن هذه الخصائص بشقيها غالباًَ ما تحمل صفات العلاقات الجدلية.

فإذا قلنا الخصائص الاجتماعية، فإنها لا شك ثمرة الخصائص المادية فهي عكسها كما تبادلها المكانة، وإذا قلنا الخصائص المادية فهي بلا شك نتاج النمو الاجتماعي والسكاني.

من هنا فان التركيز على أي شق لا يتعدى الشكل الفني، وطبيعي أن نبدأ بالخصائص الاجتماعية، ثم الخصائص المادية.

أولاً – الخصائص الاجتماعية

إن التأصيل الذي منحه (ويرث)لمفهوم المدينة من إنها طريقة حياة، تأصيل لا يأتي بعده تفصيل ذلك انه انتهى إلى أن المتحضر هو الشخص الذي يحمل سلوكاً ونمطاً وفكراً خاصاً به دوناً عن غيره ممن هو ساكن خارج المدينة ذلك أن تأصيله حمل مجمل الخصائص الاجتماعية السلوكية والفكرية بل أن البعض يذهب إلى أن نشؤ الدراسات الأكاديمية التي تعلقت بالمدينة إنما نجمت عن هذه الخصائص التي اتسمت بها. وهي خصائص تعبر عن جوهر سلوكي متصل بنمط الحياة وبذلك فالخصائص الاجتماعية تصبح خصائص ثقافية تعكس نمطاً

(21) دارين س. تومسون، مشكلات السكان، ت: راشد البراوي، دار الفكر العربي بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة– نيويورك، مارس سنة 1969، ص196.

للحياة يتعدى مفهوم أي تجمع سكاني ليس له هذه الخصائص، وفي هذا السياق لا تتحدد المدينة بعدد سكانها ولا بوسع مساحتها حسب بل تتحدد بنظام حياتها الاجتماعية فالمدينة هي كل من نمط مختلف عن النمط التجميعي الحسابي. (22) لأنه من الممكن أن تنحصر أعداد كبيرة من السكان في أماكن غير أن سلوك هؤلاء السكان لا يحمل الخصائص المدينية من شيوع العقلية الفردية وشيوع العلاقات الاجتماعية الثانوية وسواها من الصفات فينطبق عليها وصف القرية الكبيرة.

إن الخصائص الاجتماعية للمدينة ركن أساسي وفي تعقيب لبعض الدارسين العرب على جهد مدرسة شيكاغو نجدهم يؤكدون الوجه الاجتماعي لخصائص المدينة عند مدرسة شيكاغو حيث يقولون لقد انصب اهتمام بارك وعدد كبير من المتخصصين من المنتمين لمدرسة شيكاغو على الاهتمام بدراسة انساق القيم والانطباعات وما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المحلي(23).

ثانياً – الخصائص المادية

أول خصائص المدينة المادية: النمو السكاني والنمو الحضري، ويقدر "الخبراء أن وصول عدد سكان العالم إلى بليون نسمة قد استغرق نحو عشرة آلاف سنة من عمر البشرية ثم قرناً واحداً منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين ليصل إلى بليوني نسمة وتضاعف هذا الرقم ثلاث مرات إلى ما يقرب من ستة بلايين نسمة وتتردد الآن المخاوف من أن عدد سكان العالم قد يصل في أواسط القرن الحادي والعشرين مستويات لا تستطيع الموارد البيئية الطبيعية والمادية والمستحدثة الوفاء باحتياجاتها المعيشية الضرورية"(24)

(22) خليل احمد خليل، معجم المصطلحات الاجتماعية، ج 3، دار الفكر اللبناني –بيروت، ط1، 1995، ص22.

(23) علي مراد وسعد ناصف، علم الاجتماع الحضري –مفاهيم وقضايا، دار الحمد للطباعة، دون ذكر للمكان، 2008، ص119.

(24) انتوني غدنز، مصدر سابق، ص628.

إذا ما أخذنا في الاعتبار عاملي السياسة والاقتصاد في الاعتبار باعتبارها من العوامل التي تعمل على التوسع المديني فإننا سنجد أن المدينة قد أصبحت مركز جذب منذ أواخر القرن العشرين وقد تزايد "سكان المدن بسرعة مما يتزايد حجم السكان الإجمالي ففي عام 1975 كان 39% من سكان العالم يقطنون المدن والمراكز الحضرية وارتفعت هذه النسبة إلى 50% عام 2000 ويتوقع أن تصل إلى 63% عام 2025"[25].

فأصبح مؤشري النمو السكاني والحضري أهم خصائص المدينة المعاصرة ليس عالمياً فقط وإنما عربياً أيضاً "فبين عام 1914 و 1975 زاد عدد سكان حلب أكثر من 6 مرات وسكان دمشق 5 مرات وسكان بيروت 10 مرات وسكان القدس 3 مرات وسكان بغداد 25 مرة وسكان البصرة 34 مرة[26] ولا شك أن هذا النمو الحضري أدى إلى خلق خصائص تشابكت معه بحيث يكون من الصعب تجاهلها كواقع مادي ثاني خصائص المدينة الفقر الحضري خاصة في العالم الثالث بعدما استطاعت أن تتجاوزه بلدان العالم المتقدم[27].

ثالث الخصائص التضخم الحضري الذي يقول عنه سوفاني أن هناك مؤشرين يؤشران لعامل التضخم الحضري هما النسبة المئوية للسكان الحضريين والقوى العاملة في المدينة[28]

أما السيد الحسني في كتاب المدينة فيربطه بعاملي الاقتصاد الحضري من جهة والهياكل الأساسية للمدينة من جهة ثانية. [29]

ويقول في هذا الصدد انتوني غدنز"كان لنمو المدن الحديثة اثر هائل لا على عادات الناس وأنماط سلوكهم فحسب، بل على أنماط التفكير والقيم ومن اللافت

---

(25) المصدر نفسه، ص97.

(26) المصدر نفسه، ص613.

(27) عزيزة عبد الله النعيم، مصدر سابق، ص82 – 103.

(28) محمود جاد، التضخم الحضري في البلاد النامية، ط 1، دار العالم الثالث، القاهرة، 1993، ص23.

(29) السيد الحسني، المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري ، دار المعارف – القاهرة، 1985، ص87 – 88.

للنظر أن الانتشار الهائل للمدن ارتبط لدى كثير من الباحثين الاجتماعيين بمظاهر التفاوت واللامساواة الاجتماعية وشيوع الفقر والانحراف والجريمة، ولم يكن من المستغرب أن تنشأ أوائل الدراسات والنظريات السوسيولوجية حول المدن الحديثة في مدينة شيكاغو الامريكية التي كانت في الثلاثينات من القرن التاسع عشر منطقة مهجورة لا توجد حياة فيها (30)، حتى تشكلت مدرسة حضرية فيها عُرفت بمدرسة شيكاغو.

وقد طرحت هذه المدرسة خصائص للمدينة عرجنا على بعضها في حديثنا عن المدينة.

وباختصار نقول عن هذه الخصائص:

أ – أنها سلوكية مميزة من حيث ضعف العلاقات وسيادة القيم الفردية وتغليب المصالح الخاصة وما يترتب عليها من بنى ذهنية هي نتاج لها.

ب – إنها عالمية تجدها منطبقة على معظم المدن الحضرية مع فارق وضوح الحضرية في الغرب عنها دون حضرية بعض دول العالم الثالث التي قد لا نجد فيها نفس ما نجده في حضرية الغرب، في مستوى الفروق على مستوى العالم وكذلك في مستوى الفروق على مستوى المحلي حيث تكون أكثر وضوحاً في مدن العواصم منها في المدن دون العواصم في العالم الثالث.

ولعل صورة التضخم الحضري أكثر وضوحاً في العالم العربي لاعتبارات سياسية وإدارية وخدمية وبفعل الهجرة الداخلية حتى إنها تشكل في بعض الدول ظاهرة نشوء مدن الأكواخ والصفيح ومن المعروف مثلاً أن بيروت أحيطت منذ "منتصف القرن وبشكل متزايد بحزام من الفقر شكل مسرحاً للحرب الأهلية ... كذلك يشار كثيراً إلى مدينة الأموات في القاهرة وامبابة وشبرا وحلوان وغيرها من الأحياء المدقعة بالفقر والحرمان" (31).

(30) انتوني غدنز، مصدر سابق، ص597 – 599.

(31) المصدر نفسه، ص618.

وقد كان هذا التضخم الحضري احد مؤشرات فشل السياسات الحكومية في كثير من البلدان العربية خاصة، في أحداث تنمية حقيقية على مستوى القطاعين الزراعي والصناعي إلى جانب تدعيمها الجانب الاستهلاكي بانفتاحها غير المبرمج في كثير من الأحيان على العالم مما يساعد على نشوء القيم الاستهلاكية كما هي الحال في تونس والجزائر والقاهرة وتعلق باحثة مصرية على هذه الظاهرة المستشرية في العواصم العربية مدللة على مصر كنموذج استدلالي "إننا نعلم جميعاً أن مصر تعاني اقتصادياً ولكن حين تزورها تلاحظ بريق نزعة استدلالية شديدة الوضوح ومهما يكن فان الجانب الأكبر من هذه الثروة المتباهية يعود إلى قسم محدود للغاية من السكان"[32] مما يدفع الكثير من الناس إلى التحشد والسكن في أحزمة الفقر بكثافة علهم يجدون مصدر رزق لهم.

وأخيراً نستطيع أن نوجز خصائص المدينة بقسمين: هما خصائص اجتماعية حاولت مدرسة شيكاغو أن تبرزها على أنها أنماط سلوكية وفكرية تميز سكان الحضر عن غيرهم. وخصائص مادية لا شك في إنها متعددة وكثيرة ارتأت الباحثة أن تختار منها النمو السكاني والنمو الحضري والفقر الحضري والتضخم الحضري، وقد كان لهذا الاختيار دواعي منها أن هذه الخصائص تشكل حلقة متصلة مع بعضها، ومنها أنها قريبة من موضوع البحث.

الفصل الثالث

الاكتظاظ السكاني والحضري

تمهيد

لمسنا من تحليلنا للمدينة واستعراضنا لخصائصها وجود مشكلة التضخم السكاني والتضخم الحضري وهو ما يسمى بالاكتظاظ سكانياً وحضرياً حتى غدا مشكلة أخذ علماء الاجتماع الحضريون التنبه إليها لما ترتب على وجود هذه المشكلة من آثار اجتماعية وهو ما سنحاول عرضه في هذا المبحث

المبحث الأول – الاكتظاظ

(32) مصلح الصالح، مصدر سابق، ص188.

حمل مفهوم الاكتظاظ السكاني معنيان الأول مطلق وهو متعلق بفهم مالثوس وفكرته أن الاكتظاظ ينتج عن الفرق بين حجم السكان ونموه من جهة وبين حجم الإنتاج ونموه من جهة أخرى[33] معنى عام يُقدر أن الزيادة السكانية التي تحسب بطريقة متوالية هندسية من شأنها أن تخلق اكتظاظاً سكانياً بالقياس إلى حجم الإنتاج الذي يزيد بمتوالية حسابية تعجز عن الإيفاء بحاجات السكان المتزايدة بسبب النمو السكاني المتزايد.

المعنى الثاني نسبي وحوله تدور وجهتي نظر: الأولى (اشتراكية) تعتقد بان التضخم ناجم عن زيادة تصاعدية لرأس المال الذي من شأنه الاستغناء عن قسم من اليد العاملة.. الثانية وجهة نظر(الإنسانيين) وتعد ظاهرة اكتظاظ السكان نسبية لأنها ناتجة عن نقص استغلال الموارد الطبيعية والبشرية مؤكدين ان الظاهرة هي نتيجة وليست سبباً للفقر[34].

يلاحظ على هذا المفهوم انه يحمل دلالة اقتصادية ولذلك فان مفهوم الاكتظاظ ليس بالضرورة يعني الازدحام بالمكان، بل قد يعني الازدحام السكاني على مدى استغلال الموارد الطبيعية، إلا أن أهميته في علم الاجتماع الحضري تأتي من باب أنه أحد أشكال الفقر الحضري، فالفلاح بسبب عدم استغلال الأرض ناهيك عن عوامل أخرى يضطر إلى الهجرة إلى المدينة التي بالأصل هي تعاني ازدحاماً سكانياً بسبب عدم استغلال مواردها الطبيعية وبسبب الزيادة الطبيعية فضلاً عن كثير من العوامل إذا ما تجاوزنا وجهتي نظر الاشتراكيين والإنسانيين في تفسير ظاهرة الاكتظاظ السكاني[35].

وإذا ذكرنا قبل قليل أن الفقر الحضري هو احد سمات المدينة خاصة في العالم الثالث فانه مما لا شك أحد أهم مشاكل الاكتظاظ السكاني والتضخم

---

(33) منصور الراوي، دراسات في السكان والتنمية في العراق، جامعة بغداد – بيت الحكمة، 1989، ص277.

(34) المصدر نفسه، ص279 – 280.

(35) ينظر: حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2000، ص43 – 53.

الحضري ممثلا في مدن الصفيح والأحياء المتخلفة التي تشكل حزاماً يحيط بالمدينة ويمتد إلى داخلها في ظل غياب الدولة على الأقل هذا ما يحدث في العراق عقب الاحتلال الأمريكي ومع ضعف الدولة في سياساتها الإنمائية تصبح مشاكل الاكتظاظ حقائق وظواهر اجتماعية ماثلة للعيان في مدننا العربية وكثير من مدن العالم الثالث، وتشهد على ذلك ما يسمى بالمساكن العشوائية، ومآوي المقابر ، ومأوي فقراء الحضر التي تفتقر إلى المرافق (مياه نقية + كهرباء+ صرف صحي) وتتصف بالازدحام وتلوث البيئة" (36).

بعبارة أخرى أن للاكتظاظ مفهومه الاجتماعي وهو ما يتعلق بعجز الخدمات الاجتماعية القائمة عن تلبية متطلبات الرعاية الصحية وتقديم المشورات المتعلقة بتنظيم الأسرة والتعليم والتدريب (37) ولا شك أن لهذا الاكتظاظ أسباب ومشاكل وهو ما سنحاول عرضه في المبحثين التاليين.

المبحث الثاني:أسباب الاكتظاظ

إن للاكتظاظ السكاني والحضري أسباب عديدة تكون الإحاطة بها عملاً مستحيلاً في بحث متواضع كبحثنا، إلا أننا سنحاول إبراز ما كان عاماً شاملاً، وله حضور أو مباشرة كبيرة في أحداث الاكتظاظ بشقيه السكاني والحضري.

1 – النمو السكاني

إن معدلات النمو السكاني في جميع الدول الصناعية لا تتجاوز 0.5% ، وإما المجتمعات النامية والأقل نمواً فتتراوح معدلات النمو فيها بين 2% – 3%(38) ويتوقع واحد من السيناريوهات العليا أن يصل عدد سكان العالم 2150 إلى 25 بليون، ما يؤشر أن المشكلة أكثر وضوحاً في عالمنا النامي منها في العالم المتقدم، إذا لاحظنا أن العالم المتقدم، قد حقق تقدماً على صعيد التنظيم الاجتماعي لمعالجة مشكلة الاكتظاظ التي قد لا تلاحظ إذا ما لمسنا التوازن بين

(36) فؤاد بسيوني متولي، التربية والمشكلة السكانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990، ص29.

(37) انتوني غدنز، مصدر سابق، ص606.

(38) المصدر نفسه، ص631، 633.

عدد سكانها الكبير ومقدار إشباعهم لحاجاتها مع ملاحظة أنها محافظة على نسبة نموها بسبب وجود الوعي الاجتماعي والصحي.

أما في عالمنا الثالث وإذا ما طبقنا وجهتي نظر الاشتراكيين والإنسانيين حول أن الاكتظاظ مصدره عدم استغلال موارد الطبيعة أو تمركزها بيد القلة من عِلية القوم، مع غياب الوعي الاجتماعي، وحاجة الكثير من أبناء البلاد النامية إلى زيادة النسل لاستخدامهم كقوة عاملة غير ماهرة لمواجهة الفقر الذي تواجهه في غياب التوازن ما بين أعدادهم وعدم إشباع هذه الأعداد لحاجاتها فان المشكلة تغدو أعظم الأخطار ويدخل الاكتظاظ وفق هذا مرحلة أزمة فوق ما هو متشكل.

إلا أن معالجة هذا الأشكال (النمو السكاني) ضرب من المستحيل لتفاوت الفروق بين مختلف الأقطار من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتباين آيدلويجاتها إلى الحد الذي دفع مؤلف كتاب "عالم يفيض بسكانه" إن يعتقد أن الحل أن وجد فانه سيكون يوتوبياً بخلق مدينة أو دولة فاضلة حيث يقول " وتستطيع أي دولة بمفردها أن تنظر إلى العالم إذا كانت على قدر كاف من الاستنارة والإيثار فتعيد تنظيم بيتها وتنقص أو تبطل استخدام الوقود الحضري، وتدمير الغابات، وتبديد فائض المياه. ويمكن أيضاً تحسين نظام التعليم، وان يتوقف إنجاب الأطفال إلا إذا كان الآباء قادرين على رعايتهم عاطفياً واقتصادياً إن مثل هذه الإجراءات الايجابية تتوجه نحو تحقيق مدينة فاضلة محلية، لا تستطيع الإسهام في حل المشكلة الكونية إلا بقدر ضئيل ومع ذلك فالدولة الفاضلة التي تصورناها في السطور السابقة سوف تكون مصدر حسد شديد من جانب الثائرين المتمردين من سكان الدولة غير المبالية بالمشكلة"(39).

2 – تمركز الخدمات في بعض المدن (العواصم).

نشأت المدينة القديمة وأيضاً المدينة الحديثة لتؤدي وظائف ينتفع بها الناس ولاشك أن شكل المدينة الأول أتخذ طابع دولة المدينة، حيث تصبح مركز الحياة

(39) روي كالن ، عالم يفيض بسكانه – عرض لأسباب المشكلة وحل جذري لها، ترجمة: ليلى الجبالي، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، ع213، سنة 1996، ص247..

وما فيها من خدمات، وإذا راجعنا التاريخ والحروب القديمة فإننا سنجد الملك المنتصر حين يعود إلى مركز حكمه (دولته المدينة) فانه كان ينقل نوعين من غنائمه: الأول الكنوز والذهب، والثاني السبايا الذين ينظر إليهم كعبيد يستخدمهم آلات يعمر بها بلده ممن كان له مهنة أو عمل متقن لبناء المقابر والمعابد والقصور للملك وحاشيته [40] حيث مركز المدينة ، وإذا توسعنا في هذا البعد التاريخي نجد أن المدينة السومرية أو البابلية لا تختلف كثيراً في هذا الباب فالمدينة العراقية القديمة لما امتازت به من قدرة على البقاء في وجه التحديات الطبيعية (فيضان دجلة والفرات) أكسبتها ميزتها المدينية فيما أصبحت ملجئ الناس يتوافدون إليها فهي التي يتوافر فيها كل ما يحتاجون إليه وتتطور بالتالي تقاليد تقانية (تقنية) حرص أصحابها والمهاجرون إلى هذه المدن في تنميتها[41].

وهذه القاعدة القديمة نفسها قد انطبقت على المدينة الحديثة حين أصبحت المدن الكبيرة التي توفر خدمات استهلاكية وإنتاجية مراكز جذب كمدينة شيكاغو الأمريكية التي كانت في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر منطقة مهجورة لا توجد حياة فيها وتحولت بحلول عام 1900 إلى مدينة صناعية ومركز مالي ضخم يضم مليوني نسمة[42].

وبفعل التقدمين الصناعي والاقتصادي وتزايد اطراد نمو الوعي الاجتماعي في العالم المتقدم أصبحت جميع مدنه تقدم خدماتها وأصبحت بالنتيجة مدنه مراكز جذب حتى نجد أن الريفية ضاقت معالمها.

أما في عالمنا النامي فان النمو الحضري السريع وبخاصة النمو المتزايد للعواصم والمدن الكبرى يعد نتيجة لسببين هما السياسات الاقتصادية والسكانية القاهرة التي دفعت إليها ظروف الفقر الذي تعاني منه مجتمعاتنا الريفية والاهتمام المتزايد من جانب حكومات البلدان بتنمية وتطوير مدن العواصم، ومن ثم تركز

---

40) لويس ممفورد، "المدينة على مر العصور"، تحرير الترجمة إبراهيم نصحي، مكتبة الأنجلو –مصرية القاهرة، 1964، ص152 – 154..

(41) المصدر نفسه، ص177.

(42) انتوني غدنز، مصدر سابق، ص597 – 598.

معظم الاستثمارات والإنفاقات في هذه المدن[43]، فبغداد تكبر بوتيرة أسرع من أي مدينة عراقية، وحلب خسرت منافستها التقليدية مع دمشق خسارة واضحة بينما نمت عمان كالفطر بعد الشتاء ووصلت بيروت وضاحيتها عشية الحرب الأهلية إلى حد استيعاب أكثر من نصف سكان لبنان[44].

إلا أن تفوق المدينة الواحدة ضمن البلد الواحد لا يعود فقط لعدد سكانها بل لمركزيتها واحتكارها للخدمات الإنسانية المتقدمة، لذلك يحدث هذا التفوق المتعدد الجوانب خللاً في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتنموية والثقافية في المجتمع ككل [45] ويظهر هذا الخلل في ظاهر الاكتظاظ الحضري، حيث لا مكان لتوفر الخدمات بالصورة المرجوة إلا في العاصمة.

3- الهجرة

عرف الإنسان الهجرة منذ القدم، وإذا أخذنا شكلها الأول –البدائي– فإنها كانت تحفزها عوامل البقاء وحفظ، ومع تطور الحياة اختلفت دوافع الهجرة باختلاف ثقافات الناس واختلاف ظروفهم وأصبحت ظاهرة عالمية.

لقد كثرت النقاشات النظرية والأكاديمية منذ أواخر القرن التاسع عشر حول الهجرة. ومن هذه النقاشات ما يسمى بقوانين رافنشتاين التي عرفت باسم قوانين الهجرة عام 1885 ثم قوانين (لي) 1966 بعنوان "نظرية الهجرة" وتوالت النظريات التي فسرت الهجرة من (لهربل) إلى نظرية التنظيم الاجتماعي لزلنسكي إلى نظرية (رؤوس الجسر) لجون تيرنر حين اعتقد أن المهاجرين يمثلون بداية جسر العبور بين الريف والحضر[46].

وعموماً المتصفح لهذه النظريات يجدها تتفق وبشكل نسبي على ان الهجرة تحدث تغييراً في المدن كما تتفاوت دوافعها الا ان الغالب في هذا الدافع العامل الاقتصادي.

---

(43) علي مراد وسعيد ناصيف، مصدر سابق، ص276.
(44) انتوني غدنز، مصدر سابق، ص612.
(45) حليم بركات، مصدر سابق، ص243.
(46) عزيز عبد الله النعيم، مصدر سابق، ص69 – 75.

وبغض النظر عن كل ذلك فان المتفق عليه ان الهجرة لعبت وتلعب دوراً كبيراً في أحداث النمو السكاني ومن ثم النمو الحضري في المدينة في ظل مبدأ عام هو توفر الظروف الملائمة الأفضل في المدينة عنها في الريف

وعلى العموم إذا كانت الثورة الصناعية سبباً مباشراً إلى جانب رداءة الأرياف في أوربا مطلع الثورة الصناعية فان الأمر هو غير ذلك في عالمنا العربي والثالث، فكان الهروب من سوء الأوضاع الاجتماعية في الريف إلى المدينة هو العامل الأهم والأكبر ثم في مرحلة لاحقة بدأت مشكلة البحث عن الاقتصاد من أجل المعيشة ولهذا لم يكن المكان الذي انتقل إليه الريفي في المدينة ذا اعتبار فسكن لذلك الأكواخ المحيطة بالمدينة أو استقر داخل المدينة في بيوت تفتقر كلياً لأدنى شروط الصحة، جاعلاً في اعتباره الأول تحصيل قدر من المال يحسن وضعه في مرحلة لاحقة وفي هذا كتب مهاجروا مدينة العمارة إلى بغداد إلى ذويهم وأقاربهم وأصدقائهم في القرى يصفون لهم طريقة الحياة المقبولة والمريحة في المدينة[47].

فكانت النتيجة أن اكتضت بغداد، وغير بغداد من العواصم والمدن الكبرى في الوطن العربي بهؤلاء المهاجرين ولعل مطالعة بسيطة للإحصاءات التي سنستشهد بمثل أو مثلين منها من كتاب سياسات التحضر في الوطن العربي ترينا ما الذي أدت إليه الهجرة من نمو سكاني كبير ففي حين كان سكان الحضر في الوطن العربي 18 مليون نسمة عام 1950 ارتفع إلى حوالي 43 مليون نسمة عام 1970 أي ما يعادل 35% من سكان الوطن العربي وقفزت هذه النسبة إلى 42% عام 1974 [48].

لقد أحدثت الهجرة تضخماً في نمو المدن العربية بالشكل التالي عام 1970 القاهرة 4.5% بغداد 6.1% الإسكندرية 3.1% البصرة 8.3% الرياض 10%[49] وكل ذلك هو كثافة سكانية في مدن تعجز عن احتوائها مما أدى إلى إحداث مشاكل الاكتظاظ السكاني والحضري حين تزاحم الأحياء غير المنظمة بفعل

(47) غريب محمد سعيد احمد، مصدر سابق، ص203.
(48) حيدر عبد الرزاق كمونة، مصدر سابق، ص43-44.
(49) المصدر نفسه، ص63.

الهجرة الداخلية والخارجية الأحياء المنظمة، على الأقل هذا ما توصلت إليه بعض الدراسات العربية عن الهجرة[50].

(50) عزيزة عبد الله النعيم، مصدر سابق، ص136 – 145.

المبحث الثالث : مشاكل الاكتظاظ

تُعد المدينة والاكتظاظ طرفا علاقة اجتماعية، المدينة كانت المجال الحيوي ظهر فيه الاكتظاظ بأسبابه ومشاكله وآثاره ويكون من الصعب ان نرى المدينة من غير ظاهرة الاكتظاظ خاصة في ظل التطور الصناعي والاقتصادي.

وقد أفرزت تلك العلاقة نوعين من المشاكل : الأولى مشاكل اجتماعية (معنوية) والثانية مشاكل بيئية (مادية).

أما المشاكل الاجتماعية فإنها لا تعني مشاكلا بالمعنى الحرفي بقدر ما تعني رسم الحياة القيمية الحضرية، إلا إنها كأنماط سلوكية تُعد مشاكلا إذا أخذت بالقياس الاجتماعي المثالي على الأقل سيادة القيم الفردية كمثال. لقد أخذت تلك الأنماط السلوكية طابعين ايجابي وسلبي حتى انه روبرت بارك يجعل عنوانه الفرعي للعنوان الرئيسي لمقالته المشهورة المدينة (مقترحات لبحث السلوك الإنساني في البيئة الحضرية)[51].

بطبيعة الحال لم يكن بارك معنياً بظاهرة الاكتظاظ بقدر ما كان معنياً بالنظر إليها كنظام أخلاقي، ولقد اعتقد انه يمكن وصف المدينة من خلال خصائصها الوظيفية والملموسة حتى تتضح إمكانيات الحياة الثقافية والأخلاقية فيها. أما ما وسمه بارك بايكولوجية المدينة والطريقة والإجراءات التي تقسم داخلياً على أساسها فانه لا يعني وضع خريطة لتوزيع وجود الأشياء عليها بل أراد أن يكشف كيفية تأثير هذه المركبات الفيزيقية في الخبرة العاطفية والإنسانية لسكان المدينة[52].

إن المدينة بهذا المفهوم حضرية والحضرية طريقة حياة كما يقول لويس ويرت تحمل خصائص اللاتجانس أو التغاير الاجتماعي وثانوية العلاقات الاجتماعية وسيادة مفاهيم التسامح الاجتماعي والخضوع لقوانين الضبط الرسمي والثانوي وتتمتع بالحراك الاجتماعي، كما أن روابط الأفراد بسبب الكثافة السكانية وزحمة

---

(51) محمد الجوهري، علم الاجتماع التطبيقي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ، القاهرة – مصر، 2008، ص118.

(52) غريب محمد سيد احمد، مصدر سابق، ص31.

المكان طوعية وفي نفس الوقت تمتاز بالعزل المكاني حينما تشتد المنافسة على المكان لعوامل عدة[53].

إن المدينة بنظامها الأخلاقي لم تكن لتتشكل لولا عامل الكثافة السكانية حيث التراكم البشري المتزايد الذي يشكل ما عرف بالنموين السكاني والحضري أي البشري والأيكولوجي.

وعامل الاكتظاظ هو الذي يدعم قيم المدينة فمثلما قلة الكثافة السكانية ووسع المكان في الريف أفرز نمطاً من السلوك، كذلك كان لعامل الكثافة العالية وبالتالي الاكتظاظ عاملاً أفرز نمطاً من السلوك إلا انه غالباً ما كان التصور من أن الاكتظاظ السكاني والحضري في المدن التي تعجز عن الإيفاء بحاجات سكانها المكتظين هي المسؤولة عن بروز المشكلات الاجتماعية السلبية في المدينة ويظهر هنا صورتان: صورة ما نجده من شيوع الظواهر السلبية من الظلمة والقذارة والتلوث، والضوضاء وارتفاع الإيجارات، وصراع الثقافات والجماعات ووجود العشوائيات وغيرها من الصور السلبية.

وصورة ما نجده من المدارس الجيدة والمكتبات والمسارح والمعابد وتحسين الإضاءة والاتصال الاجتماعي الواضح[54].

إن السؤال المهم هو متى يطغى الطابع السلبي في المدينة على الطابع الايجابي.

للإجابة على ذلك نقول: أن هناك علاقة طردية بين متغير الاكتظاظ السكاني ومقدار قوة الدولة على توفير الاحتياجات البشرية المثلى. فالدولة كلما استطاعت أن تواجه ضغط السكان على المستويين الاجتماعي والحضري من مستلزمات مادية كبناء الأحياء وقدرتها على توفير الخدمات، كلما أصبح الاكتظاظ مؤشراً على التقدم حيث انه مؤشر على وجود المدينة التي تمثل إحدى مراحل التقدم الاجتماعي. وهذا هو ما حصل في العالم المتقدم.

---

(53) غريب محمد سيد احمد، السيد عبد العاطي السيد، مصدر سابق، ص396 – 401.

(54) غريب محمد سيد احمد، السيد عبد العاطي السيد، مصدر سابق ، ص164.

أما على العكس من هذه الصورة هي صورة العالم النامي حيث أصبح الاكتظاظ مشكلة سكانية ترتب عليها مشاكل اجتماعية فهذه الدول تفتقر إلى الموارد اللازمة لتقديم التعليم الأساسي الشامل مما يضطر العائلات الفقيرة إلى حرمان أطفالها من الدراسة للعمل بصورة متفرقة أو التسول، وعندما يكبر هؤلاء الأطفال يكون مصير الأغلبية منهم البطالة أو التشريد أو كليهما(55).

وليس من باب المبالغة القول ان الاكتظاظ الشديد وبسبب الاكتظاظ الحضري المتعلق بتداعي المناطق السكنية التي يتركز فيها العمال العاطلون تتدهور البيئة الاجتماعية وترتفع معدلات الانحراف والجريمة (56) وتذهب بعض الدراسات النفسية إلى أن العدوان يزداد مع زيادات الاختناقات السكانية والسكنية(57).

وحين تفحص هذه المشاكل نجدها مشاكل سلوكية نوعية يصعب قياسها كمياً لها انعكاسات اجتماعية صبغت الحياة المدينية، كثيراً ما نقول أنها ناجمة عن الاكتظاظ بغض النظر عن الأسباب التي أدت إلى نشوء الاكتظاظ وهي تختلف عن المشاكل المادية من حيث الجوهر إذ أن للأخيرة آثار ملموسة، بينما المشاكل الاجتماعية ذات الطابع المعنوي غالباً ما تكون قيمية.

أما المشاكل المادية فهي الأخرى خلفت نوعين من الآثار بشرية وبيئية وعلى النحو الآتي؟

أ- الآثار المادية البشرية

عند الحديث عن المشاكل المادية البشرية فإننا نقصد بالدرجة الأولى آثار الاكتظاظ السكاني والحضري على صحة الإنسان، والصناعة قد تطورت أو ظهرت في العالم على نوعين: النوع الأول أتخذ طابع تدريجي في الدول الغربية وقد عانت ما عانت من الآثار إلا انه وبدرجة كبيرة صاحب تطورها الصناعي تطور في مختلف النواحي الأخرى اجتماعية وصحية، تماماً على العكس من

(55) انتوني غدنز، مصدر سابق، ص607.

(56) إبراهيم خليفة ، علم الاجتماع والسكان، المكتب الجامعي الحديث للطباعة والنشر ، الإسكندرية، 1984، ص127.

(57) سونيا هانت، نمو شخصية الفرد والخبرة الاجتماعية ، ترجمة: قيس النوري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1988، ص282.

الدول النامية التي استوردت الصناعة من جهة ونمت مدنها بل واكتضت ولم تَقُم بالتنمية اللازمة اجتماعياً وصحياً لمواجهة آثار ما استوردته من صناعة. وبالتالي يمكن القول أن هناك فرقاً بين التحضر الذي يحدث أضراراً في المدن بالدول المتقدمة وبين التحضر الذي يحدث أضراراً في الدول الأقل تقدماً[58].

إلا انه على العموم سواء في الدول المتقدمة أم النامية فان للتحضر آثار مباشرة على صحة الإنسان دون أن يغيب عن بالنا أن أهم ميزات التحضر هو ما اتسمت به المدينة من اكتظاظ سكاني وحضري ومن هنا يتضح أن ازدحام المنازل وعدم كفاية الخدمات العامة من أهم أسباب انتشار الأوبئة في المدن[59]

ويعد ارتفاع ضغط الدم من الأمراض التي تميز سكان المدن [60] وقد بينت الدراسات والبحوث بأنه مهما كانت التأثيرات الضارة والناجمة عن التحضر إلا انه فيما يختص بأمراض القلب قد وصلت إلى مستوى مرتفع بين سكان المدن [61] الذين يعانون ضغوطاً جمة منها معاشية ومنها ثقافية ومنها خدمية ناهيك عن الضغوط السياسية والاجتماعية بسبب طبيعة العلاقة في المدينة ثم الضغوط النفسية وقد ذكر احد الباحثين أن الضغوط المؤثرة في أجهزة الإنسان هي المسؤولة عن تنوع الأمراض بما فيه ذلك أمراض عدم كفاية الشرايين التاجية وضغط الدم المرتفع وبعض الاضطرابات الهرمونية كأمراض البول السكري، وقد أصبح التوتر العصبي متأصلاً في نمط حياة في المدن وللاضطرابات العصبية لدى ساكن المدينة علاقة وثيقة بالضغوط البيئية. [62]

أما ضوضاء المدينة الناجم عن حجم الاكتظاظ فانه يسبب اضطرابات في وظائف القلب ورفع ضغط الدم، وتنشأ اضطرابات الجهاز العصبي المستقل ذاتياً

---

(58) ت. باكاكس، الأبعاد الصحية للتحضر، ترجمة. محمد عبد الرحمن الشرنوبي، الكوزيت، عام 1985، ص82.

(59) المصدر نفسه، ص209.

(60) المصدر نفسه، ص200.

(61) المصدر نفسه، ص199.

(62) ت. باكاكس، المصدر السابق، ص196.

مستقلة عن الإدراك الذاتي للضوضاء، ويوضح قياس نبض الأوردة عند الأصابع سعة اقل وذلك استجابة للضوضاء [63] كما تؤثر الضوضاء تأثيراً مباشراً على السمع[64].

وأخيراً لا بد من التذكير بان للاكتظاظ بنوعيه السكاني والحضري آثار أخرى لا يتسع المجال لذكرها.

ب – الآثار المادية البيئية

المقصود بالآثار المادية – البيئية تلك المشكلات ذات الطابع المنظور ومجالها الحيوي البيئة الحضرية وتمارس تأثيراً على الإنسان الحضري ومعروف أن هذه الآثار تتباين درجات ظهورها في المجتمعات وتباين درجتها الحضرية إلا انه من المعروف في الوقت ذاته إنها عالمية الانتشار، وابرز هذه الآثار:-

1 – الاختناقات المرورية

وهي غالباً ما تظهر حيث تتركز الأنشطة الحضرية والأعمال في منطقة وسط المدينة، غير أن مشكلة الاختناق تفسر في جانب كبير منها في ضوء ظاهرة أصبحت شبه عامة في جميع مدن العالم تقريباً، وهي زيادة الاتجاه إلى امتلاك السيارات الخاصة، ولكن هذه المشكلة إذا استطاعت الدولة المتقدمة تجاوزها بفعل التخطيط الحضري فأنها ليست كذلك في العالم الثالث حيث تتزايد مشكلات الزحام في المدن في غياب وجود خطة محددة تواجه الزيادة المتوقعة في حركة السيارات [65] ولعل هذه المشكلة واضحة جداً على الأقل في مدينة الموصل حسبما نلاحظ أن الاتجاه نحو شراء السيارات الخصوصية قد أصبح ظاهرة اجتماعية، وأصبحت تجارة السيارات رائجة خلال الخمس سنوات الأخيرة وتشهد المدينة الموصلية حالة اختناق شديدة في أوقات بداية الدوام ونهايته وهذا الازدياد في ظل غياب خطة تواجهها، وإذا كان الأمر هكذا بمدينة الموصل فكيف بالمدن المليونية عالمياً وعربياً.

---

(63) المصدر نفسه، ص188.

(64) المصدر نفسه، ص186.

)65(علي عبد الرزاق جلبي وآخرون، علم الاجتماع والمشكلات الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2003، ص151 –152.

2 – التلوث البيئي

وتزداد هذه المشكلة يوما بعد يوم في المدن العربية نتيجة التحضر السريع في الوطن العربي وتمركز السكان في مدن مكتظة فقد أدت عملية قيام المناطق الصناعية دون الأخذ بنظر الاعتبار الجوانب البيئية التي تلوث الهواء والمياه والتربة الناتجة من انتشار الغازات والأدخنة والنواتج العرضية من عملية التصنيع [66].

ويتعرض سكان المدن بصفة خاصة لنسب غير طبيعية من الرصاص نظراً لمعدلات الزيادة المستمرة في عدد السيارات في المدن، وفضلاً عن نقله الرصاص في جسم الإنسان يقوم الهواء أيضاً بنقل أصوات الضوضاء، وقد تبين أن الضوضاء مشكلة مثيرة للأعصاب[67].

3 – أزمة السكن

وهي إحدى أهم المشاكل الحضرية التي تظهر في المناطق المكتظة وهي كأحد آثار الاكتظاظ تقوم بفعل ما يترتب على وجودها من آثار بدور المؤثر أي السبب بعدما كانت نتيجة، وبسببها غالباً ما ينتشر نمط السكن العشوائي خاصة قرب مواقع العمل مما يسبب أزمة سكنية بفعل الطلب المتزايد على الوحدات السكنية ، ولمعالجة العجز الحاصل في عدد الوحدات السكنية ينبغي أن تعتمد الحكومات استراتيجيات التنمية الإقليمية المستدامة[68].

4 – يكون من الصعب الإحاطة بمشاكل الاكتظاظ فهي من الكثرة والتأثير ما دفعت الكثير من الباحثين إلى الإسهاب فيها ونحيل للاستزادة الى بعض المراجع والمصادر[69].

---

(66) حيدر عبد الرزاق كمونة، مصدر سابق، ص109.

(67) علي عبد الرزاق وآخرون، مصدر سابق، ص164 – 173.

(68) نادية صباح محمود، الآثار الاجتماعية لازمة السكن في مدينة الموصل، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب – جامعة الموصل،2000 ، ص32.

(69) على سبيل المثال أنظر: مديحة السفطي، الإسكان العشوائي، دراسة اجتماعية من الواقع المصري، جمعية المهندسين المصرية، القاهرة 1986/ شريف كمال دسوقي وحسين صبري

التوصيات

1. معالجة ظاهرة الاكتظاظ السكاني من خلال تعزيز الوعي الاجتماعي بضرورة تحديد النسل وتنظيم الأسرة.
2. معالجة ظاهرة الاكتظاظ الحضري من خلال اهتمام الدولة بمفهوم التخطيط الحضري وتفعيل دوره على مستوى الخطط الخمسية للبلاد.
3. القيام بمشاريع إسكانية لمن لا تتوفر لديهم المنازل ويقطنون في مناطق مكتظة.
4. الاهتمام بالطرق، وتسهيل عمليات النقل مما يخفف الضغط السكاني بالقرب من مناطق العمل.
5. مراقبة المصانع والمعامل في موضوع نفاياتها بما لا يساهم او يحد على الأقل من موضوع التلوث.
6. تحسين الظروف المعاشية للعاملين في القطاع الحضري بما يسهم في زيادة الإنتاج.
7. زيادة الاهتمام بالواقع الزراعي وتوفير المكننة الزراعية لخدمة الإنتاج الزراعي مما يؤدي إلى توفير فرص عمل مثمرة من جهة، ويخفف من درجة الهجرة من الريف إلى المدينة.

الشفواني، الإسكان لذوي أدنى الدخول، القاهرة 1999/ إسماعيل قيرة، من هم فقراء الحشر، مجلة المستقبل العربي – مركز دراسات الوحدة العربية، ع 205، 1996 / توماس ج.أيلذديراث، هذا الهواء وهذا الماء، ترجمة. السيد رمضان هدارة، دار المعرفة القاهرة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، 1974/ ت.باكاكس، الأبعاد الصحية للتصحر، مصدر سابق/ فيليب عطية، أمراض الفقر– المشكلات الصحية في العالم الثالث، سلسلة عالم العرفة الكويتية، 1992/ برنامج الأمم المتحدة الإنمائي/ تقرير التنمية البشرية لعام 2003 نيويورك.

نتائج البحث

الخاتمة

يمكن القول أن البحث قد حقق الأهداف التي من اجلها قام وعلى النحو الآتي بعد الانتهاء من عرض المدينة والتعريف بخصائصها تم مناقشة الاكتظاظ ومعرفة أسبابه ومشاكله وآثاره أن هناك علاقة جدلية متفاعلة يمكن أن توصف بأنها طردية ما بين المدينة كواقع يمتاز بالحضرية وبين زيادة درجة الاكتظاظين السكاني والحضري، وانه حينما تقل نسب الاكتظاظ تضعف معها درجة الحضرية. خاصة وأننا وجدنا أن النمو السكاني وتمركز الخدمات في مدن وعواصم العالم الثالث ثم الهجرة هي التي تؤدي إلى زيادة الاكتظاظ

من جانب آخر لمسنا أن هناك فارقاً ما بين الدولة المتقدمة والتي استطاعت ان تواجه التحديات الحضرية وعلى رأسها الاكتظاظ وما بين الدول النامية ومنها دولنا العربية التي تعاني مشاكلاً في الاكتظاظ على مستوى الخدمات الاجتماعية والصحية.

أما على مستوى عموم الاكتظاظ وشموله وجدناه شاملاً في دول العالم المتقدم نسبي في العالم الثالث حيث غالباً ما عم جميع مدن العالم المتقدم وانحسر في عالمنا الثالث في بعض مدنه الرئيسة العواصم خاصة.

The social Impacts of the Demographic znd the Urban Crowdedness/ a Theoretical study in the Urban sociology

[*] Nadya Sabaeh Mahmood

Abstract

There is an interactive and controversial relaionship that could be described as a direct on between the city as a fact characterized by urbanism on one hand and the demographic and urban increase on the other. When the relatives of the crowdedness decrease the degree of the urbanism becomes weak. It is found out that the demographic development and the centering of the services in the cities and capitals of the developing countries to which there will be migration, all these matlers will lead to increase the crowdedness.

It is also noticed that there is a kind of diflerence between the advanced country that was able to face the urban challenges the main one among them is the crowdedness and the developing countries, among them the Arab countries which suffer from problems of crowdedness on the social and healthy services while on the level of the entire crowdedness and its containment it is found out that it is comprehensive in the advanced countries while it is reltive in the developing countries because it mostly prevailed the advanced countries and decreased in the developing countries in some of its main cities namely the capital ones.

[*] Dept. of Sociology / College of Arts/ University of Mosul.